حضارة اشنونا (ديالى في العصور القديمة)

إعداد

أ.د. شاكر محمود اسماعيل

جامعة ديالى- كلية التربية للعلوم الانسانية – قسم التاريخ

تمتلك بلاد الرافدين مواقع ومدن تاريخية مهمة موغلة في القدم يرجع تاريخها الى الاف السنين قبل الميلاد وهو بذلك يسبق جميع حضارات العالم القديمة المعروفة ، وكانت ابرز مدنه أور والوركاء وكيش ونفر واشنونا واكد وبابل واشور وغيرها الكثير ، لذلك فان الكلام عن هذا الارث الحضاري الكبير يطول .

وتعد منطقة ديالى من الناحية الجغرافية والبيئية مؤهلة بصورة كبيرة للاستقطاب الحضاري ، فقد امتلكت هذه المنطقة المؤهلات الحضارية الجغرافية التي تتمثل بتوفر المياه العذبة متمثلة بوجود نهري دجلة وديالى وتوفر التربة الخصبة والموقع الاستراتيجي المشرف على الطرق التجارية الدولية واهمها الطريق التجاري الدولي المعروف باسم طريق الحرير الذي يمر من مناطقها متوجها الى سواحل البحر المتوسط ، مما جعلها منطقة استقطاب حضاري مهم للأقوام العراقية القديمة .

ويذكر ان منطقة ديالى من الناحية الجيولوجية قد تكونت منذ العصور السحيقة وهي احدى مناطق السهل الرسوبي التي تحتوي اغلب مناطقها على التربة الغرينية الخصبة الصالحة للزراعة ، وذلك نتيجة للفيضانات المستمرة لنهر دجلة ونهر ديالى وما تحمله تلك الفيضانات من التربة الغرينية الخصبة ، ولذلك فان المنطقة منذ ذلك التاريخ والى الان تعد من مناطق العراق المعروفة بوفرة انتاجها الزراعي نتيجة لذلك .

وقد يظن البعض ان كانوا في اختصاص التاريخ او في غيره ان العمق التاريخي لحضارة ديالى يبدأ بظهور مملكة اشنونا في العصر التاريخي الذي يعرف بالعصر البابلي القديم وذلك بحدود (٢٠٠٤-١٥٩٤ق.م) ، وان جل ما قدمته هذه الحضارة هو قانون اشنونا، لا بل قد يعتقد البعض ان ديالى ومناطقها لم يكن لها وجود على المسرح الحضاري السابق للعصر البابلي القديم ، ولكن الادلة التاريخية تثبت ان العمق التاريخي الحقيقي لحضارة منطقة ديالى يرجع الى العصور التاريخية الاولى اي ما يعرف بعصر دويلات المدن السومرية ، وكان لإنجازها الحضاري اثر على حضارة العراق القديم بصورة عامة .

لقد شكلت هذه المنطقة الجغرافية المهمة عنصر جذب واستقرار للقبائل العراقية منذ العصور الحجرية القديمة ، وهناك من يذكر انه قد ظهر في منطقة ديالى مملكة محلية منذ عصر فجر السلالات (٣٠٠٠-٢٤٠٠ق.م) وهو ما يعني انها كانت ضمن ما يعرف بـ ممالك دويلات المدن السومرية ، ولكن للأسف ليس هناك معلومات تاريخية تفصيلية عن تلك المملكة ، وان منطقة بمميزات ديالى من ناحية توفر المياه والتربة الخصبة فضلا عن الموقع الاستراتيجي المهم على الطرق التجارية ، لاسيما وقد شكلت طبيعة المنطقة المتواجدة في المثلث المحصور بين نهري ديالى من الشرق ونهر دجلة من الغرب وحجزتها من الشمال جبال زاكروس ، كل ذلك يمنحها فرصة طبيعية ان تكون مسرح جغرافي لأحدى الدويلات في العصر السومري الاول ، مع العلم ان بعض تلك الدويلات السومرية لم تتوفر لها كل هذه المقومات الحضارية الجغرافية كما توفر لإقليم ديالى .

ونذكر ان اسم (اشنونا) الذي اصبح الاسم المتعارف لحضارة ديالى واسم للمملكة الآمورية التي ظهرت في هذه المنطقة ضمن الممالك العديدة التي انبثقت بعد انهيار امبراطورية اور السومرية الثالثة (٢١١٣-٢٠٠٤ق.م) ، جاء من صيغة (esh-nan-na) والتي تعني (بيت الامير) في اللغة الاكدية ، لذلك فان الرسم الصحيح لاسم المملكة باللغة العربية يفترض ان يكون (اشننّا) وليس (اشنونا) كما هو شائع ، وكان الاسم القديم لها هو (تل حرمل) وهو الموقع الذي يقع على الجهة الشرقية من نهر ديالى ويعد اكبر التلال الاثرية في منطقة ديالى ، الا ان التنقيبات الاثرية اثبتت ان (تل اسمر) هو مركز عاصمة مملكة اشننّا التي ورد اسمها في المصادر المسمارية ، لذلك سنسير على ذكر الاسم بهذه الصيغة (اشننّا) .

ويبدو ان اقدم ذكر لاسم اشننّا جاء من زمن الملك الاكدي نرام سين (٢٢٩١-٢٢٥٥ق.م) وبعد ذلك توالى ذكر اسم مملكة اشننّا وامتدادها السياسي والجغرافي على المنطقة الشرقية من بلاد الرافدين .

نبذة تاريخية عن مواقع مملكة اشننا :

لقد ظهرت العديد من المواقع الجغرافية التابعة لحضارة ديالى القديمة مثل (تل اسمر وتل حرمل وتل خفاجة وتل اشجالي وتل محمد وتل شادوبّوم، وتل توتوب، وتل الضباعي ، وتل أجرب ، وتل السيب ، وتل حداد) ، وغيرها من المواقع ، ويرجع بعض من هذه المواقع الى عصر فجر السلالات وهو ما يؤكد عمقها التاريخي ، وقد ظهر في عدد منها معالم لبنايات معابد قديمة كان ابرزها معبد الإله سين والمعبد البيضوي في تل خفاجة ومعابد اخرى في تل اسمر ، وقد تطورت الحياة السياسية والحضارية في مواقع ديالى القديمة بظهور مملكة اشننّا

في العصر البابلي القديم كواحدة من الممالك الامورية المهمة ، وقد تمكنت بفضل موقعها الاستراتيجي ومقوماتها الجغرافية ان تكون قوة سياسية واقتصادية تلعب دورا كبيرا في الاحداث السياسية ، إذ انها اصبحت نداً سياسياً لمملكتي بابل الى الجنوب منها واشور الى الشمال ، وسنعطي نبذة تاريخية موجزة عن اهم هذه المواقع :

١- تل اسمر (العاصمة) : سمي بهذا الاسم من قبل اهل المنطقة المجاورة للتل ، والاسم الأكدي له اشننّا الذي اطلق على المملكة التي ظهرت في العصر البابلي القديم (٢٠٠٦- ١٥٩٥ق.م) ويقع بنحو ٥٠ ميل شمال شرق مدينة بغداد في المنطقة المحصورة ما بين نهر ديالى شرقا ونهر دجلة غربا ، ويرجع تاريخ المعالم الحضارية لهذا الموقع الى الالف الرابع قبل الميلاد اذ وجدت تماثيل تعود الى عصر فجر السلالات الثاني (٢٧٥٠-٢٥٥٠ق.م) وقد وجد المنقبون في هذا الموقع قصر وقاعة اجتماعات ومعبد يرجع تاريخه الى اواخر الالف الثالث قبل الميلاد وبداية الالف الثاني قبل الميلاد ، ووجد قصر اخر يعود الى العصر الاكدي ابان الامبراطورية الاكدية (٢٣٧١-٢٢٣٠ق.م) .

٢- تل خفاجي (توتوب) : اسمه المحلي خفاجي واسمه الاكدي توتوب ، يقع على الضفة اليسرى لنهر ديالى مقابل منطقة الفضلية وهو الان ضمن حدود قضاء المدائن ، ويرجع تاريخ المعابد في هذا الموقع الى عصر فجر السلالات الاول بحدود (٣٠٠٠-٢٨٠٠ق.م) كمعبد الاله سين (القمر) والمعبد البيضوي ومعبد الاله ننو ، كما وجدت اعداد من الالواح المسمارية ، وموقع تل خفاجي منطقة واسعة يحوي مجموعة من التلال التي تعود الى العصر الشبيه بالكتابي (حدود الالف الثالث قبل الميلاد) .

٣- تل حرمل (شادوبوم) : يقع في الجنوب الشرقي من مدينة بغداد ويمثل هذا الموقع المركز الاداري لمملكة اشننّا وهو في منطقة تل محمد (او ما يسمى بغداد الجديدة اليوم) ، وهو بمثابة مدينة مسورة بسور مستطيل غير منتظم له بوابة ضخمة على جانبها برجان كبيران ، وهو موقع فريد ومتميز ظهرت فيه اعداد كبيرة من النصوص الفخارية التجارية والقانونية والعقود الزواج وقرارات المحاكم واسماء الموظفين واجور الرواتب ومجموعة كبيرة من الرسائل الادارية ، واهم تلك النصوص هما اللوحان الطينيان اللذان يضمان شريعة اشننّا المدونة باللغة الاكدية

٤- تل الضباعي : وهو من المواقع المهمة لمملكة اشننّا ويقع بالمنطقة المقابلة لتل حرمل على الجانب الشرقي لنهر دجلة في بغداد ، والاسم القديم له (زرالولو)، وقد عثر فيه على دور سكنية وابنية رسمية ومعابد ، واهم ما عثر فيه مئات من

الالواح المسمارية ذات الاهمية الكبيرة والتي ترجع الى بداية الالف الثاني قبل الميلاد ، وعلى مجموعة من الرقم الطينية تمثل مسائل رياضية غاية في الاهمية تمثل حلاً لمسائل جبرية وهندسية التي عرفت فيما بعد بـ (نظرية فيثاغورس ونظرية اقليدس) اليونانيين ، زورا وخطأً ، وهذه النصوص الموجودة في هذا الموقع تسبق الحضارة اليونانية بألف عام على الاقل.

٥- تل عقرب (اجرب) : يقع هذا التل على بعد ١٥ ميلاً شمال شرق تل اسمر واهم ما كشف عنه المعبد الذي خصص لعبادة الاله (شارا) فضلا عن عدد من المعابد الصغيرة التي وجدت فيه .

٦- تل اشجالي : يقع على بعد ثلاثة اميال جنوب شرق تل خفاجي ويرجح ان يكون هذا الموقع هو موضع مدينة (تريبتم) القديمة ، وقد وجدت فيه عدة معابد من بينها معبد الإلهة (عشتار) والإله (شمش) ووجدت كذلك مجموعات من الالواح المسمارية المختلفة الاغراض ، ويرجع تاريخ هذا الموقع الى بداية الالف الثاني قبل الميلاد ،وهناك مواقع اخرى صغيرة تتبع الى هذه المواقع والى مملكة اشننّا .

ونتيجة لاستقرار الاقوام العراقية فيها فقد قدمت مواقع ديالى القديمة انتاجات حضارية عديدة وعلى الاصعدة كافة ، انعكست اهميتها الحضارية على حضارة العراق القديم بصورة عامة وليس حضارة ديالى فحسب ، وكان من بين اقدم تلك الانجازات هو تمكن المختصين بناء على ما قدمته اثار مواقع ديالى ، من تقسيم عصر فجر السلالات الى ثلاثة ادوار هي (عصر فجر السلالات الاول وعصر فجر السلالات الثاني وعصر فجر السلالات الثالث) ، فضلا عن ذلك فقد ظهرت في مواقع ديالى العديد من الطرز الفنية والمعمارية في طريقة النحت والاشكال الهندسية المختلفة في الاختام الاسطوانية وفي طريقة البناء ، ومن ثم اصبحت ميزة حضارية في جميع مناطق العراق القديم ، منها استخدام الفخار القرمزي واللِبن المستوي والمحدب والجِرار ذات الاكتاف المحززة وغير ذلك .

لقد قدمت مملكة ديالى القديمة (اشننّا) انجازات حضارية عديدة منها معمارية واقتصادية ودينية وسياسية ، توجت تلك الانجازات بسن تشريع قانوني عرف بقانون اشننّا وهو اقدم من قانون حمورابي ذائع الصيت بأكثر من مائة وخمسين عام ، وظهرت في مواقع ديالى القديمة الالاف من النصوص الكتابية في شتى المجالات العلمية والدينية والاقتصادية ، كان من بينها نظرية في علم الرياضيات والتي نسبت زورا الى علماء اليونان فيثاغورس واقليدس الذين ظهروا بعد اشننّا بألف عام، وهذا العدد الكبير من النصوص الكتابية فاقت به الكثير من المواقع الاخرى .

- التنظيم التشريعي (قانون إشننّا) :

لقد ادرك ملوك العراق القدماء بحسهم السياسي والاداري ، ان المجتمع الذي يبلغ درجة من التطور السياسي والرقي الاجتماعي لا يمكن ان تسيره الاعراف والتقاليد الدينية والقبلية ، بل يتوجب ان ينظم حياته من ناحية الحقوق والواجبات ونشر العدالة الاجتماعية بسن قانون شامل لكل متطلباتهم الانسانية في تلك المرحلة .

يعد قانون اشننّا من اقدم القوانين المدونة باللغة الاكدية ، ويعود تاريخه الى مرحلة تسبق قانون حمورابي بحدود ١٠٠ الى ١٥٠ عاماً ، وينسب هذا القانون الى مملكة أشننّا الآمورية الواقعة في شرق منطقة ديالى الحالية ، وعاصمتها اليوم هي تل اثري معروف بتل اسمر ، الذي يقع في المثلث الخصب بين نهر ديالى ونهر دجلة ، وكان لتلك المملكة اهمية خاصة على الطرق التجارية بعد نهاية سلالة اور الثالثة في نهاية الالف الثالث قبل الميلاد .

اكتشف هذا القانون خلال تنقيبات مديرية الاثار العامة في موقع تل حرمل الواقع في مدينة بغداد التي جرت في العام ١٩٤٥م ، فقد اعلن الاستاذ الدكتور طه باقر ذلك العام اكتشاف لوحين مدون عليهما القانون المعروف بقانون إشننّا ، من بين ألاف النصوص المختلفة الاغراض ، وكتب القانون باللغة البابلية السامية ، على اعتبار ان العرب الجزريين هم ابناء البلاد في تلك المرحلة وكانوا يشكلون غالبية كبرى ، ويقدر تاريخ تدوين هذا القانون بحدود العام ١٨٢٠ ق.م ، وكان الرأي السائد لعدة سنوات ان مدون هذا القانون هو الملك (بلالاما) احد ملوك مملكة أشننّا نهاية الالف الثالث ومطلع الالف الثاني قبل الميلاد ، وقبل ذلك كان الرأي ان مدون قانون أشننّا هو الملك (دادوشا) ، إلا ان الرأيين غير دقيقين ولم يتأكد أي منهما ، لذلك فان هذا القانون لا يعرف لحد الان من الذي دونه لذلك تم نسبته الى المملكة .

يتكون القانون بصيغته الحالية التي هي نسخة مستنسخة من النص الاصلي ، من مقدمة ذكر فيها اسم مملكة اشننّا وستين مادة قانونية ، وقد عالجت تلك المواد جوانب حياتية مختلفة ما بين اجتماعية واقتصادية وعقوبات ، ويمكن تصنيف مواد قانون اشننّا الى خمسة مجموعات :

١- اهتمت المجموعة الاولى بتحديد اسعار القوت اليومي مثل الشعير والزيت والملح وغيرها .
٢- والمجموعة ثانية اهتمت بتحديد اجور العربات والقوارب ومن يعمل عليها وتحديد اجور العمال الزراعيين .

٣ـ المجموعة الثالثة فقد حددت العقوبات على جرائم العصر الذي سن فيه القانون ، وعلى الاضرار التي تلحق بالأخرين ، وقد جمعت في ذلك بين القصاص والدية ، فأقرت القتل عقاباً للقاتل ، والدية على الجروح التي لا تؤدي الى الوفاة .

٤ـ المجموعة الرابعة تتناول تنظيم العلاقات الاسرية والمعاملات الخاصة ، فاشترطت رضا الوالدين في زواج ابنتهما ، والزواج لن يكون رسميا بدون عقد رسمي امام والديها .

ونصت بعض مواد هذه المجموعة على انه اذا تعاقد رجل مع شاب على تزويجه ابنته ثم زوجها لغيره ، وجب عليه ان يرد له ضعف ما اخذه منه .

وهناك مادة لمن طلق زوجته ذات الاولاد وتزوج غيرها عليه ان يترك دارها وما فيها لزوجته الاولى واولادها .

٥ـ وجاءت المجموعة الخامسة من قانون اشننّا على تأكيد حقوق القصور الملكية والمعابد والنبلاء فيما يمتلكونه من العبيد والجواري والعقارات ، فحرمت على الرقيق والإماء الموسمين بأسماء ساداتهم ان يجتازوا بوابة اشننّا دون اذن ساداتهم .

ويبدو ان سن القوانين لدى المجتمع العراقي القديم اصبح تقليد لدى بعض المدن التي سارت على منهج مملكة اشننّا ، فظهر قانون لدى مدينة آيسن ومن ثم مدينة بابل .